مناقشات

على هامش «مندور الانسان والناقد»

وقف الدكتور عبد الكريم الأشتر كتابه « معالم في النقد العربي الحديث »(١) على ثلاثة كتب رأى فيها صوى للحركة النقدية الحديثة وهي : « الديوان »(٢) ذلك البيان الانقلابي الذي جرؤ فيه المازني والعقاد على أن يعتبرا فيه حركتهما أتم نهضة أدبية في عمر اللغة العربية إلى زمنهما ؛ و « الغربال »(٣) الذي كان رفيق الديوان في مفازة على غير احتساب ؛ ثم « الميزان »(٤) الذي تخرجت عليه أجيال من القراء والطلبة من أساتذة الأدب وناقديه اليوم حتى بلغ « أثره فينا مبلغ الديوان والغربال ، وحد من معالم نقدنا الحديث البارزه ، بعد أن تجاوزنا مرحلة النقض والتأسيس التي شغلها الكتابان الأولان ، إلى مرحلة البناء التي بدأ يرفع أعمدتها الميزان »(٥) .

والدكتور الأشتر الذي خصص ثلث كتابه المذكور لدراسة كتاب واحد من أهم وأعمق ما خطه يراع مندور ، عارضاً له ، شارحاً مافيه مناقشاً لأفكاره ، أراد أن يتجاوز نتاج مندور هذه المرة ليتوقف عند الإنسان فيه ، ثم الناقد ، فكان لنا من ذلك مقالته « حديث شخصي عن مندور الإنسان والناقد »(٦) . ومع أن المرء يتوقع أن يكون هذا الحديث ملفعاً بجميل الذكرى التي يحتفظ بها التلميذ لأستاذه ، مادام حديثاً عن الإنسان ؛ إلا أنه في الوقت نفسه يتطلع إلى شيء أكثر من هذا عندما يرى عنوان المقال يتجاوز الإنسان في مندور إلى الناقد ، ولكن الدكتور الأشتر كما يبدو لم يرد هذا بل إنه رغب في أن يكون حديثه كلاماً « يخالط الحياة مخالطة حادة ، في غير قيود الدراسات ومقتضياتها » فمندور لم يكن بالنسبة إليه مادة نقدية أو فكرية فحسب ، ولكنه كان إلى هذا مادة الحياة ونسيجها النفسي في مرحلة عامرة مثيرة من مراحل العمر(٧) . وعلى الرغم من ذلك فإن المقال

لم يخل من أحكام تقويمية أطلقها على الدكتور مندور ونتاجه فهو « ذو صفاء رائع في ذوق الشعر وتقويمه »(٨) وكلامه له من القدرة والحرارة ونفوذ البصيرة الشعرية ما يملأ نفس الدكتور الأشتر(٩) وهو إضافة إلى ذلك له من موهبة « الملاحظة الدقيقة النافذة ما يضيء النص في لمحة واحدة »(١٠) .

ويتوقف الدكتور الاشتر في مقاله عندما يراه أبرز صفة في تكوين مندور وهي : وضوح النزعة الإنسانية ، ويحاول أن يدلل عليها من حياته ونتاجه ما وسعه الجهد ، ويسوقه ذلك إلى الحديث عن هذا التلميذ العاق لأستاذه ، الهش الثقافة ، وإلى ماكتبه عنه في هذا الكتاب الذي صدر في بيروت كما يقول ، وإلى إهماله حق أستاذه في دعوته إلى الغداء في بيته . ويبدو أن هذا الحديث قد استوقف الكاتبة فاطمة ازميرلي(١١) فحاولت أن تستفهم عنه ورأت في الأثر النفسي الذي خلفه هذا الرجل في نفس مندور ، والذي حدثنا عنه الدكتور الأشتر ، شيئاً غريباً بالمقارنة مع ما خلفته معارك مندور النقدية مع صدقي باشا والعقاد وسيد قطب ، وإذا ما جاز لي أن أضيف ، مع محمود أمين العالم ورشاد رشدي ، وخلف الله وسواهم ، وحارت كيف توفق بين هذا الذي يذكره الدكتور الأشتر وبين ما يمكن أن تخلفه هذه المعارك الندية كما يقولون في نفس الرجل(*) وربما كان الحديث عن ملابسات هذا الرجل الهش الثقافة ومحاولة الوقوع على بعض أسباب تقويمه المجحف بحق مندور مفيدة للقارئ . ولا بد لي من الإشارة إلى أن ما أورده هنا لايعدو مفهوم الهواجس التي أرى أن الدكتور الأشتر قد أغفلها لأنه شاء لحديثه أن يكون شخصياً ، ولعله يفرغ في يوم للكتابه عن مندور فهو كما أعتقد من أفضل المؤهلين للكتابة عنه .

في شهر أيار من عام ١٩٦٠ عقدت هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت مؤتمرها السنوي العاشر ، وكان موضوع المؤتمر « ما أسهم به المؤلفون العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي ». ولما كانت الهيئة قد أدخلت على المؤتمر تعديلات ، في برنامجه وفي نطاق الأعضاء المشتركين ، وعزفت عن المحاضرات إلى الدراسات العميقة وقصرت العضوية على أحسن الأختصاص ، فقد دعت

(*) ربما كان الاختلاف الكبير بين طبيعة تقويم أنداد الدكتور مندور له في معاركهم معه ، وبين التقويم الأكاديمي الذي جاء في بحث د . محمد يوسف نجم الذي عزى الإشارة إليه وراء هذه المرارة التي رسبت في قرارة نفسه والتي حدثنا عنه الدكتور الأشتر .

مجموعة من الباحثين ليتناولوا هذا الموضوع بالبحث والتقويم فكان منهم : الأساتذة الدكاتره : صالح أحمد العلي ، وليد عرفات ، جبرائيل جبور ، أنطون غطاس كرم ، عمر فروخ ، موسى سليمان ، محمد كامل حسين ، إحسان عباس ، شكري فيصل ، ومحمد يوسف نجم ، وكان من ضمن هذه الأبحاث بحث الدكتور محمد يوسف نجم عن الفنون الأدبية (١٢) الذي قوم فيه التأليف في هذه الفنون ومنها النقد . وعرض فيه لنتاج الدكتور مندور الذي يقول عنه « إنه صفحة جديدة ناصعة في تاريخ النقد العربي الحديث ، لو لم تسودها السياسة ويعبث بها المرض والحاجة ، لغدت من أنصع الصفحات »(١٤) .

ويقسم الدكتور نجم حياة مندور النقدية إلى ثلاثة أطوار ، الطور الأول من سنة ١٩٤٢ - ١٩٤٥ ، والثاني ١٩٤٥ - ١٩٥٣ ، والثالث منذ ١٩٥٣ وحتى وفاته(١٥) ، ويقول عن الطور الأول إنه كان فيه « ناقداً حصيفاً ينبعث من حدود علمه وذوقه ويعتبر النقد بالنسبة إليه رسالة حياة ، ولذا يبدأ معاركه النقدية بمراجعة المقاييس السائدة . وقد جمع مقالاته الأولى في كتاب « في الميزان الجديد » الذي يعتبر بدء مرحلة جديدة في النقد ، قائمة على الثقافة العميقة الشاملة ، والذوق المرهف المهذب ، والإخلاص المتصل ، والعمل الجاد »(١٦) ثم يقف عند الطور الثاني ويصفه بأنه طور أعجف لم يقدم فيه إلا كتابه « في الأدب والنقد » وهو أقرب إلى الملخصات والحواشي منه إلى الكتب المؤلفة بعناية وتؤدة . وبعدها ينتقل إلى الطور الثالث عندما اختير مندور للتدريس في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية فيقول « فعاد مندور إلى الأدب وقد هاضه المرض وأرهقته السياسة ، وحملته ضرورات العيش على أن يقبل كل عمل يوكل إليه ، فاتسمت أبحاثه في هذه الفترة بالسرعة والنقل والمجازفة في الآراء وبالسمعة التي تعب فيها بنائها ... وتبارت الصحافة الأدبية ضغثا على أبالة فهو يكتب في المجلات الأسبوعية والشهرية وفي الصفحات الأدبية من الصحف اليومية ويحاضر في قسم الصحافة في كلية الآداب وفي معهد التمثيل ومعهد الدراسات العربية العالية . كل ذلك فرضته عليه مطالب العيش والشعور بدنو الأجل وإجبال القريحة وتعطل القدرة الذي استولى عليه بعد المرض »(١٧) . وبعدها يميز الدكتور نجم بين موقفين في نقد مندور ؛ الموقف النظري الذي يقول عنه « إنه انصرف فيه إلى نظريات النقد ، ونقد النقاد ، وقد استنفد أكثر جهوده ، وأشهد أنه صدر فيه عن ثقافة عميقة شاملة » ؛

والموقف التطبيقي الذي يأخذ عليه فيه أنه حمل عليه حملا فيما يرى بحكم عمله في معهد الدراسات العربية ، وأنه نقد محول عن طريقته يتسم في الأكثر بالسرعة والتصفح وعدم الاتزان ، ولذلك فإن مندور لم يرتفع في نقده التطبيقي إلى المستوى الذي بشر به في النظريات التي بثها في أول حياته النقدية . ويحاول بعد ذلك أن يفسر ذلك فينسبه إلى أن مرحلة النضج التطبيقي في حياته كانت سريعة مبتسرة ، ويتمنى لو أنه استمر في التدريس الجامعي المنظم ليتاح لهذه النظريات التي اختزنها أن تتفتح وتستحصد بتؤدة وتعقل .

وهكذا فإن الدكتور نجم لم ينكر لمندور ، ولكنه رأى فيه إنساناً غير معصوم عن الخطأ ، محكوماً بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحيط به ، رأى المؤشرات الإيجابية في عمله فأثبتها ، ووقع على المؤشرات السلبية فأشار إليها وحاول تفسيرها وتحري أسبابها بل إنه كما يبدو لي قد وقع على أسباب جد معقولة ومقبولة ، وأعتقد أن الدكتور الأشتر قد ألمع إلى شيء مما أخذه الدكتور نجم على مندور . فمندور وكما يقول الدكتور الأشتر نفسه :

* كان يدرس أكثر من عشرين ساعة في الأسبوع .

* وكان له أسرة كبيرة يعيلها يسميها القبيلة .

* وهو متحمس لتغيير هذا المجتمع .

* وهو قد أجريت له عملية جراحية في لندن استؤصل بها الخراج الذي أصاب دماغه وضغط على عصب البصر فأوشك أن يذهب به ، ولذلك هدأت فورة نشاطه وقلت حركته وحل محلها هذا السكون الثقيل .

* وهو قد يهيج أحياناً وخاصة في نقده التطبيقي لبعض ما يقرأ أو يشاهد أو يسمع ، ويسوقه عدوى الموقف الاجتماعي المسبق لا النقد الموضوعي للنص فيكتب مالايرضي حتى تلامذته .

أقول كل ذلك يجعل المرء أميل إلى الأخذ بتقويم الدكتور نجم بعين الاعتبار حين يحاول أن ينظر في نتاج الدكتور مندور ، وليس ذلك بضائر مندور ، فأي النقاد الكامل .

إن الدكتور الأشتر فيما يبدو أصاخ لحديث الدكتور فيصل عن أستاذه طه حسين عندما قال في الذكرى الأولى لوفاته : « أجل هو ، في عيني وفي نفسي ، من أن أتناول حياته ببحث ، أو أن أعرض لكتاب من كتبه بدراسة ، أو أتوقف عند جانب من جوانب أدبه بالتحليل ... فلم يكن - عندي -

المؤلف ولا الباحث ولا الناقد ، ولم يكن عندي الأديب الذي لايجارى ... وإنما كان قبل ذلك كله – الأستاذ ... ولا يحتمل وفائي لأساتذتي أن ألقاهم بغير النظرة الحيية ، إني لأغضي حياء منهم وتوقيراً . . »(١٨) رغم أن الدكتور فيصل كما يعرف عنه تلاميذه لم يكن – في محاضراته وبحوثه – يرى في طه حسين ذاك الرجل الذي يمكن أن يرتفع عن النظرة التقويمية ، وهكذا كانت له معه وقفات عديدة في المعرفة وفي الجامعة ، لأنه رأى أن أقل الأمانة والوفاء للدكتور طه حسين أن نأخذه بمنهجه عندما ندرس نتاجه .

قد تكون المعاصرة حجاباً ، وقد تكون التلمذة حجاباً آخر ، وكلاهما يشفع للدكتور الأشتر في حديثه عن الدكتور مندور وفي دفاعه الحادعنه وتوقيره والاخلاص لذكراه. ولكن مندوراً بعد أن قضى غداً ملكاً للناس جميعاً يقولون فيه ما يشاؤون لأنه علم هؤلاءالناس أن يقولوا في بعضهم مايشاؤون ، وأن يراجعوا المقاييس النقدية السائدة في عصرهم ، ولأنه بعد أن قبل بنشر نتاجه لم يعد حراً في تقبل آراء الناس في هذا النتاج أو رفضها ، وبالتالي لم نعد أحراراً في أن نكتب عنه أو لانكتب ، فتلك مشروعية النشر ، وهذه حقوق القراء .

أمر آخر أود الإشارة إليه وهو أن الاختلاف بين ثقافة الرجلين ـ أعني الدكتور نجم والدكتور مندور – وطبيعة حياتهما واهتماماتهما وثقافتهما إلى غير ذلك من الأمور ... كل ذلك قاد الأول أن ينظر هذه النظرة المترددة في قبول نقد مندور التطبيقي ، فالمحاكمة الأكاديمية الصارمة التي أخذ بها ذلك المؤتمر ، وأخذ بها مؤتمروه لا يمكن أن ترضى على هذا النتاج التطبيقي كله الذي رأى الدكتور الأشتر نفسه موضع تردد في قبوله عندما أشار إلى نقد مندور لمسرحية رشاد رشدي « لعبة الحب » .

وتبقى أخيراً إشارة صغيرة أشارك فيها أستاذي الدكتور الأشتر الحكم على السيدة الشاعرة ملك عبد العزيز في أن خير مواهبها صفاء الذائقة النقدية مخالفاً في ذلك السيدة الكاتبة ازميرلي . ولعل مقدمة الدكتور مندور نفسه لكتابه « نماذج بشرية » في طبعته الثالثة ، تشفع لنا كلينا في الدفاع عن صحة هذا الحكم عندما قال « اعتدت أن أملي على زوجتي ما أكتب أو أقرؤه عليها بعد الفراغ منه ، وهي أديبة تجيد الشعر والنثر ، وأنا شديد الثقة بذوقها الأدبي الذي أدركته فيها وهي لاتزال طالبة بكلية الآداب ، ولقد كان هذا الذوق دائماً خير عون لي على الرجوع عما قد تسوقني إليه حرارة القلم عندما يتملكني الموضوع فأندفع في أعقابه ، ولقد تناولت هذه النماذج بالمراجعة قبل جمعها في الكتاب الحالي ، فإذا بي أرجع إلى ما كانت قد رأته عند الكتابة الأولى في عدد من المواضع »(١٩)

عبد النبي اصطيف
اكسفورد

(١) دار الشرق بيروت ١٩٧٤

(٢) العقاد ،عباس محمود وإبراهيم عبد القادر المازني – الديوان في الأدب والنقد – جزءان – القاهرة – ١٩٢١ .

(٣) نعيمة ، ميخائيل – الغربال – بيروت – ١٩٦٤ .

(٤) مندور ، د. محمد – في الميزان الجديد – ط٣ – مطبعة نهضة مصر – دون تاريخ .

(٥) الأشتر ، د .عبد الكريم – معالم في النقد العربي الحديث – ص٧ .

(٦) الأشتر ، د . عبد الكريم – حديث شخصي عن مندور الإنسان والناقد – المعرفة العدد ١٧٩ – كانون الثاني (١٠٢ – ١١٨)

(٧) نفسه ص١٠٢ .

(٨) نفسه ص ١٠٤ .

(٩) نفسه ص ١٠٦ .

(١٠) نفسه ص١٠٧ .

(١١) ازميرلي ، فاطمة – مندور والنقد – المعرفة العدد ١٨١ – (١٧٩ – ١٨١)

(١٢) العلي ، د . صالح أحمد وآخرون – الأدب العربي في آثار الدارسين – دار العلم للملايين – بيروت شباط ١٩٦١ .

(١٣) المرجع نفسه – الصفحات (٣١١ – ٤٨٠) .

(١٤) المرجع نفسه ص ٣٥٦ .

(١٥) من الجدير بالذكر أن الدكتور مندور كان قد توفي في ١٩ أيار ١٩٦٥ ، وإشارة الدكتور نجم بالطبع هي إلى سنة ١٩٦٠ ، فهو يجعل الطور الثالث منذ بداية ١٩٥٣ وقت تاريخ عقدا لمؤتمر ، ولما كانت الفترة الواقعة بعد هذا التاريخ امتداداً لسابقتها كان من الممكن مد الطور الثالث حتى سنة وفاته .

(١٦) نجم ، د . محمد يوسف ص ٣٥٧ من المرجع السابق .

(١٧) المرجع نفسه ص ٣٥٨ .

(١٨) فيصل ، د . شكري – طه حسين ذكريات ومواقف – المعرفة العدد ١٥٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ – ص ٢٢ .

(١٩) مندور ،د. محمد – نماذج بشرية–الطبعة الثالثة–دار المعرفة–مايو ١٩٦١ ،ص٥ .